

دلائل الإعجاز

يتجدّد في الطول أو يحدث فيه القصر . فأما وأنتَ تُحدّثُ عن هيئة ثابتة وعن شيءٍ قد استقرّ طولُهُ ولم يكن ثمّ - تزايدٌ وتجدّدٌ فلا يصلحُ فيه إلاّ الاسم . وإذا ثبتَ الفرقُ بينَ الشيئين في مواضع كثيرةٍ وطهر الأمرُ بأنّ ترى أحدهما لا يصلحُ في موضعٍ صاحبه وجبّ أنْ تقضيَ بثبوتِ الفرقِ حيث ترى أحدهما قد صلحَ في مكانٍ الآخر وتعلّمَ أنّ المعنى مع أحدهما غيرُهُ مع الآخر كما هو العبرةُ في حمّل الخفيّ على الجليّ . وينعكسُ لك هذا الحكمُ أعني أنك كما وجدتَ الاسمَ يقعُ حيث لا يصلحُ الفعلُ مكانَهُ كذلك تجدُ الفعلَ يقعُ ثمّ لا يصلحُ الاسمَ مكانَهُ ولا يؤدّي ما كانَ يؤدّيهِ . فمن البيّن في ذلك قول الأعشى - الطويل - :

(لَعَمْرِي لَقَدْ لَاحَتَ عُمُيُونَ كَثِيرَةٌ ... إِلَى ضَوْءِ نَارٍ فِي يَفَاعِ تَحَرَّقُ) .
(تَشَبَّهُ لِمَقَرُّورَيْنِ صُطَلَيَانِهَا ... وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى وَالْمَحَلَّ قُ) .
معلوم أنّهُ لو قيل : إلى ضوءِ نارٍ مُحَرَّقةٍ لَنَبَا عَنْهُ الطَّبَّيعُ وَأَنكَرَتْهُ النَفْسُ .
ثم لا يكونُ ذاكَ الذُّبُوُّ وذاكَ الإنكارُ من أجلِ القافيةِ وَأَنَّهَا تُفْسَدُ بِهِ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ لَا يُشَبِّهِهُ الْغَرَضَ وَلَا يَلِيقُ بِالْحَالِ . وكذلكَ قولُهُ - الْكَامِلُ - :
(أَوْ كُلَّمَا وَرَدَتْ عُمَاظُ قَبِيلِئِلَةٍ ... بَعَثُوا إِلَيَّ عَرِيْفَهُمْ يَتَوَسَّسُ) .

وذاكَ لأنَّ المعنى في بيتِ الأعشى على أنّ هناكَ مَوْقِدًا يتجدّدُ منه الإلهابُ والإشعالُ حالًا فحالًا . وإذا قيلَ : مُحَرَّقةٌ كانَ المعنى أن هناكَ نارًا قد تَبَيَّنَتْ لها وفيها هذه الصفةُ . وَجَرَى مَجْرَى أَنْ يُقَالَ : إلى ضوءِ نارٍ عَظِيمَةٍ في أَنَّهُ لَا يَفِيدُ فَعَلًا يُفْعَلُ . وكذلكَ الحالُ في